العودة المتخيلة ـ المستقبل

نصري حجّاج*

بلاد الميرمية الجديدة:

"معالجة غير مكتملة لسيناريو فيلم روائي طويل"

لم نولد لنسأل: كيف تم الانتقال الفذّ ممّا ليس عضوياً إلى العضوي؟
محمود درويش، من قصيدة "بيروت"

انتهت أم العبد حمود من فرم الخبّيزة، بينما كان البصل المقطّع صغيراً يتقلب في المقلاة العملاقة العامرة بزيت الزيتون. أضافت أم العبد الخبيزة المفرومة إلى الزيت والبصل.

كان الصوت الآتي من التلفزيون في غرفة الجلوس يعلن التصويت في مجلس الأمن بالإجماع على القرار ١٩٥ الخاص بإنهاء الصراع الفلسطيني ـ الإسرائيلي مرة واحدة وإلى الأبد.

كانت أم العبد تعرف ما كان جميع اللاجئين الفلسطينيين في العالم يتابعونه باهتمام فيما يتعلق بمداولات صاخبة تجري في أروقة الأمم المتحدة وفي عواصم العالم بشأن هذا القرار الجديد، فقد بثت وسائل الميديا برمّتها تقارير وصوراً من مراسليها في جميع العواصم لها علاقة بهذه المداولات في أجواء من التفاؤل والأمل بالوصول إلى إجماع على هذه المسألة، فالحجج التي جرى بموجبها النقاش لا يمكن لأحد أن يرفضها، أو أن يثبت بالعلم والبحث عدم صوابيتها. ولذا نجح التصويت في الجمعية العامة للأمم المتحدة لأول مرة بالإجماع ومن غير استخدام حق الفيتو من طرف أي جهة نافذة، أو من غير أي اعتراض من أي دولة أو امتناع من التصويت.

نحن الآن في سنة ٢٠٥٠، وقد استيقظت أم العبد حمود كعادتها في الرابعة صباحاً كي تصلّي الفجر وتبدأ تحضير طبق الخبيزة الذي لاحظ أبناؤها وبناتها أنها أكثرت في الآونة الأخيرة من عدد المرات التي أعدت فيها الخبيزة والملوخية بالعدس وفطائر

* مخرج سينمائي وكاتب فلسطيني.

الزعتر الأخضر، كما لاحظوا إصرارها صباحاً ومساء على أن يشرب الجميع نقيع الميرمية وإضافته بكميات أكبر من المعتاد إلى الشاي في الأوقات كافة.

قالت أم العبد، وهي حفيدة للاجىء فلسطيني من منطقة الحولة في الجليل الأدنى كان قد ولد في مخيم عين الحلوة في السنة التالية للنكبة، لأبنائها وبناتها الخمسة الذين صاروا اليوم في العشرينيات من العمر: "ناقصكو خبيزة وملوخية وميرمية وزعتر يمه! لازم تشحنو دمكم فيهم. يمه أنتم ولدتم هنا وأنا ولدت هنا وأبوكم ولد هنا وجدكم ولد هنا فلازم نثبت حقنا بالبلد حتى ولو مات أجدادكم وأبوكم بالمخيم. أرض جدكم الأكبر وأبوكم ناطرة."

في العام الثلاثين للنكبة كان عيسى عبد القادر جوهر نجح في شهادة البكالوريا الفرع العلمي بتفوق على مستوى لبنان، وقد فرح أبوه وفرح أهل حارتهم وفرح أبناء المخيم لنجاحه، حتى إن رشقات من رصاص بنادق كلاشنكوف أُطلقت ابتهاجاً وتعبيراً عن مشاعر وطنية لأن لاجئاً فلسطينياً نجح ذلك النجاح الباهر في لبنان.

كل مَن عرف عيسى جوهر كان يؤمن بعبقريته العلمية واجتهاده ومثابرته على الدرس. كانت الكتب العلمية، وخصوصاً كتب علم الوراثة، غرامه الكبير ومصدر سعادته وهو يمضي ساعات على سطح بيتهم في المخيم يقرأها باهتمام بالغ، على الرغم من أنها لم تكن ضمن منهاجه الدراسي.

انقطع عيسى عن الاختلاط بأصدقائه وبرفاقه خارج شلة المدرسة أو في الحارة. كان يريد الاستعداد لتقديم طلب للدراسات العليا في ألمانيا الغربية ليدرس علم الإراثة.

ما هو علم الإراثة يا ولدي؟ قال له أبوه عبد القادر النجار البسيط الذي كان يعمل في صناعة الكراسي والطاولات والأسرّة.

أجابه عيسى: سأشرح لك يا أبي ماذا أقصد بهذه الدراسة، لكني أريدك ألاّ تحدث أحداً بالموضوع حتى أمي!

ذهل عبد القادر ممّا سمعه من ابنه عيسى، وبدأ يحس بخوف على ولده من أن تكون قراءة الكتب العلمية قد ذهبت بعقله إلى مطارح لا يعود منها العقل، كما حدث مع ابن جيرانهم فتحي المصطفى الذي ما إن بدأ يفكر في دراسة الموسيقى، وأصرّ على أمه الفقيرة لتشتري له آلة العود، حتى اعتبره الناس في الحارة مجنوناً، وانتهى به الأمر في مستشفى "الفنار" للأمراض العقلية والنفسية، عاد بعدها بأعوام في تابوت وهو لم يكمل الأربعين من العمر. وقيل إن ولعه بالموسيقى وتبحّره في قراءة علمها وعلاقتها بمختلف أنواع العلوم، وخصوصاً الرياضيات، أحدثا له تقرحات في معدته أدت إلى نزيف، فانفجرت معدته ذات ليلة ولم يستطع الأطباء إنقاذه فمات. وقيل إن سبب الموت كان النسيان، إذ نسي فتحي المصطفى بعد مئات من جلسات العلاج بالصدمة الكهربائية ولعه بالموسيقى وشغفه الكبير بامتلاك آلة العود التي ماتت أمه جوعاً وهي توفر ثمنها.

جلس عبد القادر على كرسي خشبي من صنع يديه إلى جانب ولده عيسى يستمع إليه وهو يشرح تفصيلات مشروع دراسته في ألمانيا. كان عبد القادر جوهر يرتجف، وتكاد تُسمع

دقات قلبه المتسارعة خوفاً من أن يسمع ما يجعله يواجه ما واجهته أم فتحي المصطفى الذي راح بلا رجعة وراء أحلامه المستحيلة.

قال عيسى: اسمع يا أبي! عندما روى لي خالي قاسم عن أول رحلة له إلى قريتنا في الجليل بعد أن أتاحت له جنسيته الأميركية التي حصل عليها منذ أعوام طويلة زيارة فلسطين، وكيف أحس بأنه ما عاد في إمكانه المشي بعد أن نزل من سيارة صديقه الفلسطيني الذي أقلّه إلى القرية، وبأن ثقلاً هائلاً وقع على كتفَيه في لحظة لم يتوقعها، وكيف شعر باختناق جعله يخشى من أن يصاب بجلطة قلبية تودي به، وأن تلك الحالة استمرت ثلاثين دقيقة تقريباً، وجعلته غير قادر على المشي، الأمر الذي دفع بصديقه صاحب السيارة إلى إمساكه من ذراعه وسحبه سحباً إلى أن استعاد قدرته على المشي وحده، فأخذ نفساً عميقاً وهو ينظر حوله صامتاً قلقاً ممّا أصابه. وقتها، يا أبي، قال لي خالي مداعباً: هل تعرف يا عيسى لماذا لم أستطع المشي في تلك اللحظة وأحسست بأن جبالاً شاهقة تجثم فوق كتفَيّ، وبأن رأسي يكاد ينفجر وضربات قلبي تسارعت وخفت أن أصاب بجلطة، فقد كنت وقتها في الثامنة والأربعين من العمر، مع أني سليم الجسد وأمارس الرياضة ومواظب على الطعام الصحي؟ السبب هو "الآورا" ولفظها بالإنجليزية. فقلت له ما هي هذه "الآورا" يا خال؟ فقال إنها الهالة، أي ذلك الغلاف اللامرئي الذي يحيط بجميع الكائنات الحية من إنسان وحيوان؛ والهالة ذات عناصر متعددة من الماء والتراب والهواء والحرارة، ومن الجزئيات التي تحملها العناصر المكونة من شجر وخضار وذرات أصغر من الذرة، المعروفة في باطن كل ما هو كائن على الأرض وفيها وفوقها، ومن ذلك مثلاً الخبيزة والملوخية والميرمية والزعتر، تلك الأعشاب البرية التي يعشقها الفلسطينيون عشقاً لا ينافسهم فيه شعب آخر.

فسألته: وما دخل الهالة بحالة عدم الحركة والإحساس بالضغط المرتفع التي حدثت معك يا خال؟ فأجابني بثقة عالية: لست متأكداً ما إذا كان العلم وأبحاث علم الوراثة سيتوصلان إلى حقيقة علمية مؤكدة تثبت أن الهالة تورّث كما تورّث الجينات الوراثية الأُخرى في التكوين الفيزيولوجي للإنسان. ولو افترضنا جدلاً أنها تورّث فأنا أستطيع تفسير ما حدث معي تفسيراً علمياً من غير اللجوء إلى الرومنسيات الوطنية والكلام الجميل عن الحنين والذكريات وأوجاع كآبة الاقتلاع من المكان، كما حدث معنا نحن الفلسطينيين أجيالاً وراء أجيال. لقد سمعت حكايات كثيرة عمّا أحس به فلسطينيون من الشتات زاروا قراهم ومدنهم بجوازات أجنبية، وهم، في أغلبيتهم، وصفوا ردات فعل عاطفية وجسدية في أول لقاء لهم بأرضهم شبيهة إلى حد ما بردة فعلي وفعل جسدي في أول لقاء لي مع القرية.

وكيف تفسر ذلك يا خالي لو افترضنا جدلاً أنها تُورّث؟ سألته باهتمام وفضول بالغين. فقال: إن الهالة التي أحكي عنها في أرض قريتنا موجودة بنسبة ١٠٠٪، أي أنها هي التي تشكل الغلاف الذي يلف ـ إلى الأبد ـ جسدي، لكني لم أولد في القرية فأنا ولدت في مخيم لاجئين في لبنان، لكن أبي ولد فيها، وجدي دُفن فيها، وجد أبي ولد ودُفن هناك، وهكذا مع تتابع الأجيال المؤسسة لدمي ودمك وهالتي وهالتك. كان أبي يحمل من الهالة نسبة ١٠٠٪،

وتخيلت لو أنه عاد إلى القرية في زيارة لمات فوراً ومن أول ثانية احتكاك لقدمَيه مع أرض ولادته، لأن التصادم الفجائي، بعد غياب طويل، بين نسبة الـ ١٠٠٪ في هالته مع الـ ١٠٠٪ في المكان المؤسس لكينونته، قد يُحدث تفجراً في شرايين القلب أو الدماغ، العضوين الأساسيين في الجسد اللذين يحملان جميع إشعاعات العاطفة وأسباب الحياة أو الموت الفجائي. ولنرجع إلى موضوع إراثة الهالة، فأنا لا أحمل بسبب ولادتي في الشتات النسبة الكاملة من الهالة التي حملها أبي رحمه الله، قد أكون حاملاً لنسبة ٩٠٪ أو ٨٠٪، لا أدري فالعلم يقرر ذلك، لكن الحالة التي أصابتني في زيارتي الأولى للقرية هي نتيجة تصادم النسبة الناقصة في هالتي مع النسبة المكتملة في مكان تكوّن الهالة ومنبتها وأصلها.

وعليه يا عزيزي فنحن في عصر تقدم العلم في العالم، وأتخيل أن القفزات التي حدثت في الأعوام الأخيرة أجبرت الأمم على التفكير في حلول للصراعات في المجتمعات البشرية من خلال العلم، فلم يعد ممكناً أن تُحلّ الصراعات بالحروب، فجميع الأمم باتت مسلحة وأي حرب جديدة أو حرب مستمرة لن تجلب إلاّ الكوارث إلى الإنسانية، ومن هنا أفكر: ما هو السبب الرئيسي للصراع بيننا وبين الإسرائيليين؟ هو ببساطة وبعيداً عن التحليلات المعقدة.. صراع على الرواية والتاريخ والحق في الأرض. فالإسرائيليون يقولون إن الله وعدهم بفلسطين، ولا يمكن لإنسان أن يثبت أن روايتهم عن الوعد رواية إلهية. وعلى الرغم من ذلك، فإن هذا بقي مستندهم الأول في إقناع كثير من اليهود بالهجرة إلى فلسطين والاستيطان فيها، وقد نجحوا في ذلك وبنوا دولة لليهود اعترف بها العالم لأسباب متنوعة، ثم إنهم أقنعوا أنفسهم أولاً، وأقنعوا العالم بأنهم الضحية الحصرية للنازية والعداء للسامية التي نشأت في الغرب، وقد نجحوا إلى حد كبير في الحصول على التعاطف معهم ومع دولتهم حتى ممّن يُحسَبون على اليسار في العالم.

طيب، يتابع خالي قاسم، لو أننا استطعنا بالعلم والأدلة العلمية التي لا تقبل الجدل، أن نثبت أن الهالة يمكن أن تورّث فلن يبقى علينا سوى إقناع الأمم المتحدة بإجراء فحوصات للهالة ونسبتها في كل مَن يدّعي أن فلسطين أرضه، أكان يهودياً أم فلسطينياً، أم هؤلاء الذين يسكنون في فلسطين، أم أولئك الذين يسكنون خارجها مثل فلسطينيي الشتات، وكذلك اليهود في جميع أنحاء العالم الذين حتى إن لم يأتوا إلى فلسطين مستوطنين أو زائرين يتبجحون بحقهم في أرض فلسطين التي وعدهم بها الله في الكتاب المقدس.. الهالة ونسبتها المورثة هي التي تعطيك الحق في الزعم أنك تنتمي إلى هذه الأرض، والحق في امتلاكها. أعرفتَ الآن يا عيسى لماذا أصابني ما أصابني في اللحظة التي وطئت قدماي أرض قريتنا الجليلية؟

كان عبد القادر جوهر يستمع بصمت إلى ابنه، وخوف مرعب يتسلل إلى قلبه، ليس بسبب ما حدث لفتحي المصطفى، بل خوفاً على ابنه من الاغتيال على يد عملاء الموساد في حال اكتشفوا أهمية هذه الدراسة وخطورتها، والتي ينوي عيسى أن يطبقها على روايتهم والسردية التي عملوا عقوداً طويلة من الزمن كي يقتنع بها اليهود وغير اليهود في العالم.

استعاد عبد القادر قصص اغتيالات علماء الذرة المصريين في باريس في ستينيات القرن

العشرين وسبعينياته، والعلماء العراقيين على يد عملاء إسرائيل وإيران وأميركا بعد احتلال العراق في بداية القرن الواحد والعشرين، وعلماء الذرة الباكستانيين والإيرانيين وغيرهم. لكن هذه الدراسة ستهدد الجذور الفكرية والثقافية والتاريخية لوجود إسرائيل برمّتها أكثر من السلاح النووي. هي فكرة لو قُيّض لها أن تتحقق وتثبت علمياً ستنهار إسرائيل بفحص صغير تافه في مركز صحي في أي قرية.

قام عبد القادر من على كرسيه وأشعل سيجارة من علبة التبغ التي يحملها في جيب قميصه، ونفخ نفساً عميقاً، وتطلع صوب الشمس التي بدأت تنحدر خلف التلال فتنشر لوناً برتقالياً في الأفق جعل قلبه ينقبض، وهاجمته موجة حزن موجع، فقد أحس فعلاً بالفخر بابنه وبأفكاره، لكنه كان خائفاً عليه من الموت، فقال له: اِسمع يا حبيبي عيسى، ألم تعرف تاريخ تعامل إسرائيل مع علماء الذرة العرب والمسلمين؟ هل تريد أن تموت قبل أن تنجز دراستك يا بني؟

ابتسم عيسى ابتسامة الواثق بنفسه وأفكاره، والعارف كيف يحمي نفسه، وقال لأبيه: منذ أن أخبرني خالي حكاية الهالة وأنا أفكر فيها وأبحث عبر الإنترنت وأشتري كتباً وأطّلع على دراسات كثيرة صدرت في العالم تبحث في علم الإراثة، وقرأت تاريخ إسرائيل وكتب التنظير الصهيونية كلها، كما قرأت عن تاريخ التقدم العلمي والتكنولوجي في دولة إسرائيل، وهي بلا شك دولة متقدمة ومتفوقة علينا وعلى دول غربية، لكن تقدمها العلمي كان دائماً من أجل مصلحتها وتفوقها على المستويات كافة. وطبعاً لم يغب عن بالي يا أبي ما فعلته إسرائيل بالعلماء غير اليهود لأنها تريد أن تحتكر العلم لها كما تحتكر دور الضحية لليهود. غير أني لم أقدّم إلى الجامعة الألمانية هذا المخطط الدراسي كما ذكرته لك، وإنما كان موضوع دراستي الكيمياء، لكن ليس الكيمياء كعلم، وإنما كتعبير يستخدمه الناس للدلالة على التآلف والتصادم بين القلوب في علاقات الحب والصداقة. ما أرسلته هو دراسة معرفة الأسباب التي تجعلنا نحب شخصاً من أول نظرة أو أول مصافحة أو أول لقاء يجمعنا في حيّز واحد، أو تجعلنا نشعر كأننا لُدغنا من عقرب منذ اللحظة الأولى التي نرى فيها شخصاً معيناً، وأعني النفور الذي قد يكون أحياناً متبادلاً بين الناس. من هذه الزاوية أرسلت إلى الجامعة في ميونيخ أنني أريد أن أدرس فرضية إراثة الهالة وتأثير نسبها المتبادلة بين الناس في الحب والانجذاب العاطفي والجنسي أيضاً، وأنا بيني وبين نفسي سأعمل على طريقة تكون فيها الإشارة إلى علاقة الهالة بالمكان رمزية من غير أن أبدي اهتماماً واضحاً فيها إلى أن أستطيع إثبات النظرية بما لا يحتمل الجدل. وبناء على مقترح الدراسة، أي "البروبوزل"، وصلتني رسالة موافقة من الجامعة للدراسة، وإعجاب شديد بموضوع الدراسة، حتى إنهم قرروا تقديم منحة لدراسة الدكتوراه غير المحددة بفترة زمنية. كما اقترحوا مشرفين على دراستي ثلاثة علماء في علم الإراثة من أشهر علماء العالم وكنت قرأت كتباً لبعضهم. المشكلة أن أحد هؤلاء، على ما عرفت من سيرته الذاتية، يهودي ينحدر من أسرة يهودية أبيد معظم أفرادها في المحرقة النازية في معسكر أوشفيتز في بولندا، لكنه ليس صهيونياً، بل إنه

مناهض للصهيونية ومكروه في إسرائيل، فقد نشر مرة دراسة عن سيكولوجيا الضحية واحتكارها من طرف الفكر الصهيوني، حتى إنه دافع في بعض المؤتمرات العلمية عن الضحايا الجدد في العالم، أي نحن يا أبي.

ثلاث طناجر من الخبيزة تكفي ربما لعشرين شخصاً، وعشرات أقراص الزعتر الأخضر، وطنجرتان من الملوخية مع العدس ـ وهي طبخة معروفة في بعض قرى الجليل وتسمى "هرنابة" وتؤكل غماساً بالخبز ـ وثلاثة "تيرموسات" من الشاي والميرمية، كانت جاهزة على طاولة الطعام أمام أم العبد وهي تنظر إلى هذه الطناجر بفخر وسعادة ولهفة. نادت الأبناء والبنات وأمرتهم بتحميل الطناجر في سيارة الفان استعداداً لرحلة العودة إلى البلد عبر الحدود اللبنانية المفتوحة منذ تم إعلان فتح مراكز فحوصات الهالة في القرى والمدن الفلسطينية كافة. كانت الحدود بين فلسطين والدول المجاورة مفتوحة كلها، وكذلك جميع المطارات، حتى إن مطار غزة الذي بُني في الأعوام الأولى لعودة ياسر عرفات قبل أكثر من نصف قرن، والذي دمرته إسرائيل فيما سمّي وقتها الانتفاضة الثانية، تم إصلاح مدرجاته وبرجه في خلال ٤٨ ساعة ليصبح صالحاً للاستخدام ولاستيعاب طائرات صغيرة، وهو ما حدث أيضاً في مطار قلندية المتوقف عن العمل منذ احتلال إسرائيل الضفة الغربية في سنة ١٩٦٧. صارت فلسطين منذ ذلك اليوم، أي في ١٥ أيار / مايو ٢٠٥٠، قبلة لملايين الفلسطينيين واليهود من أطراف العالم كافة. كلهم كانوا فرحين بهذا الحل باستثناء بعض المتطرفين اليهود وبعض الإسلاميين الفلسطينيين؛ فاليهود لا يريدون مشاركة الفلسطينيين أرض إسرائيل، والإسلاميون يعتبرون فلسطين أرض إسلام ورباط.

كان عيسى جوهر قد أقنع، في نهاية دراسته التي أحدثت انقلاباً كونياً، البروفسور برونو لانسير بأهمية إيجاد حل سلمي للصراع الدامي بين الفلسطينيين والإسرائيليين، فلا الفلسطينيون قادرون على إزالة إسرائيل وتحرير بلدهم، ولا الإسرائيليون قادرون على شطب الشعب الفلسطيني من الخريطة البشرية بعد نحو قرن من الحروب والقتل والدمار. كان البروفسور لانسير مقتنعاً بهذا كله، لكنه لم يجد طريقة لإقناع العالم على الرغم من اجتهاده الأكاديمي ورؤيته الإنسانية، فجاء هذا الشاب اللاجىء الفلسطيني ليقنعه بالحجة العلمية، ولذلك لم يكشف سرّ بحثه إلاّ بعدما وصل إلى اليقين العلمي بصواب البحث واكتشاف تلك النظرية العبقرية بشأن إراثة الهالة.

اتصل لانسير بحكومته وأرسل إلى الأمين العام للأمم المتحدة وكتب إلى رؤساء العالم كلهم، ومن ضمنهم رئيس حكومة إسرائيل والرئيس الفلسطيني أحمد داود، ودعا إلى اجتماع للجمعية العامة للأمم المتحدة بحضور زعماء العالم. وفي الموعد المحدد سافر برفقة العالِم الفلسطيني الشاب إلى نيويورك وطلب، بعد كلمة له مختصرة أشاد فيها بعبقرية عيسى جوهر، أن يشرح عيسى نظريته ويوضح تفصيلاتها التي أدهشت جميع الزعماء ولم يستطع أحد منهم أن ينكرها وينكر صحتها العلمية، بمَن في ذلك رئيس حكومة إسرائيل يتسحاق بورغ، وهو أحد أحفاد أبراهام بورغ اليهودي المولود في فلسطين في ثلاثينيات القرن العشرين.

صدر القرار ١٩٥ الذي ينص على إنهاء حالة الصراع بين إسرائيل والفلسطينيين، وطُلب من منظمة الصحة العالمية ووزارات الصحة في جميع الدول الأعضاء إرسال طواقم وتجهيزات لفتح مراكز الفحص الجيني وكل ما له علاقة بالهالة.

ربما ما يجب أن يُذكر هو أن الجدل الوحيد الذي حدث بشأن نظرية جوهر لإراثة الهالة كان الجانب المتعلق بعصارات الخبيزة والملوخية والزعتر والميرمية عندما تمتزج معاً في الدم وتشكل عنصراً قوياً في زيادة نسبة الهالة المحيطة بالكائن. لكن الجمعية العام للأمم المتحدة لم تكترث لهذا الجانب وتسامحت فيه لسببين: الأول، رأفة بالفلسطينيين الذين عانوا لأكثر من قرن إنكاراً لحقوقهم مع ما في ذلك من معاناة وتشريد، والثاني، لأن العناصر الأساسية المكونة للهالة هي العناصر المستمدة من التراب والهواء والماء والموجات الكهرومغناطيسة، فلن يكون والحالة هذه للخبيزة والملوخية والميرمية والزعتر تأثير حاسم في وجود نسبة تؤهل الشخص لإثبات زعمه بالبلد، أو عدم أهليته لذلك.

ثم أثير بشأن تسمية البلد جدل عاصف، فالإسرائيليون وحلفاؤهم أصروا على بقاء إسرائيل كاسم للدولة، والفلسطينيون أصروا على فلسطين مستشهدين بما قاله شاعرهم قبل أكثر من نصف قرن: كانت تسمى فلسطين، صارت تسمى فلسطين، لكن هذه الحجة الوطنية الفلسطينية الرومنسية التي يغلفها الحنين إلى البلد لم تقنع الكثيرين، فتم الاتفاق بين الأعضاء على ترك الاسم إلى مرحلة ما بعد انتهاء الأجل المحدد للفحوصات التي ستحدد عدد الناس من الجهتين الذين ظهرت نتيجة فحوصاتهم إيجابية، وبذلك يكون للأغلبية الحق في إطلاق التسمية التي تشاء، مع أن ذلك سيمثل إجحافاً لحقوق الأقليات، فتُرك أمر التسمية في النهاية إلى جلسة أُخرى تُعقد بعد اكتمال العملية برمتها.

وصلت أم العبد وأبناؤها وبناتها إلى فلسطين بعد ساعات، على الرغم من قصر المسافة ما بين قريتهم الجليلية والمخيم، ذلك بأنهم كانوا يتوقفون كل بضعة دقائق بناء على أوامر أم العبد ليتناولوا الخبيزة أو ملوخية العدس وفطائر الزعتر ويشربون الشاي بالميرمية. كانت فلسطين كأنها في يوم الحشر: ملايين من البشر تدفقوا ليجروا فحوصات الهالة ـ فلسطينيين ويهوداً من جميع أنحاء العالم عدا المقيمن هناك من الشعبين. كنت ترى رجالاً ونساء يرطنون بلغات متنوعة، منهم مَن يقول هالة، ومنهم مَن يقول آورا، ويخرجون من مراكز الفحص، منهم مَن كان فرحاً، ومنهم من كان متجهماً بسبب النتيجة السلبية.

الذين فشلوا في حمل نسبة تؤهلم للعيش في البلد، أي حقهم في امتلاكها، لم يكونوا من اليهود فقط كما يتبادر إلى الذهن فوراً، إذ فشل فلسطينيون كثيرون في حمل النسبة المطلوبة، وقد شاهدت أم العبد روائياً فلسطينياً معروفاً في التسعينيات من العمر يلطم ويبكي لأنه تبيّن أنه لا يحمل من نسبة الهالة ما يجعله يزعم أنه ينتمي إلى البلد، فتذكر الناس أنه في الأصل متحدر من عائلة من شمال أفريقيا جاءت إلى فلسطين في نهاية القرن التاسع عشر، ولم يكن يولي أي اهتمام للخبيزة والمكونات الأُخرى، فقد عاش مترفاً بعيداً عن حياة الناس العاديين. أمّا ذلك الشاعر الذي لم يُهجّر من البلد في كارثة ١٩٤٨، فإن أحفاد أحفاده لم ينجحوا أيضاً

في الحصول على النسبة المطلوبة ذلك بأنه، كما قال بعض المؤرخين، كان يغلف جسده وروحه بمحبة طغاة عرب، الأمر الذي جعل هالته هشة وضعيفة، وقد أورث هذا كله لذريته.

شهدت أم العبد حالة من الفوضى والازدحام لم تشهدها في حياتها كلها، صارت البلد كأنها بابل القديمة المبلبلة، تجد الناس يمشون في الطرقات والشوارع ساهمين ضائعين كأن القيامة قامت ليُخلق الكون مرة واحدة من جديد.

في تلك الأسابيع التي أعقبت الفحوصات، أصدرت اللجان الأممية المشرفة عليها، النتائج التي أدهشت العالم، لا بل صدمته صدمة غير متوقعة البتة. وأكثر المصدومين من النتائج ليس اليهود فقط، بل الفلسطينيون أنفسهم أيضاً. فقد أثبتت النتائج أن اليهود الذين حازوا على نسب مؤهلة لم يتعدوا المليون والنصف من قرابة ١٥ مليون يهودي هو عددهم في العالم، وقد أجرى منهم ١٠ ملايين فحص الهالة. كما تبيّن أن اليهود الروس والأوكرانيين والأميركيين والفرنسيين لا علاقة لهم بالبلد، وهؤلاء يمثلون أكثر من نصف يهود إسرائيل، حتى إن عدداً كبيراً من اليهود المغاربة والتونسيين والإيرانيين والعراقيين فشلوا في التأهل لحقّ المواطنة، على الرغم من أن التونسيين وُجد في جيناتهم وهالتهم عنصر ضئيل من مكونات الملوخية، لكن لأنهم يأكلونها جافة ومطحونة ويتركونها تغلي سبع ساعات مع الزيت واللحم على النار، فإن الملوخية فقدت مصدر قوتها لتكون عاملاً من عوامل الهوية الجينية لأهل فلسطين.

وهكذا صدرت أوامر دولية برجوع جميع الفاشلين في الفحص من اليهود إلى بلادهم الأصلية، وبقي من السكان مليون ونصف مليون يهودي منهم؛ ويا للمفارقة، فإن مفكراً صهيونياً من عتاة الصهيونيين الجدد ومنظّريها المعروفين، وكذلك أحفاد الكاتبة الإسرائيلية اليسارية المعروفة التي كثيراً ما كتبت تضامناً مع عذابات الفلسطينيين عميرة هس، فشلوا أيضاً في الفحص وصار عليهم الرجوع إلى هنغاريا، بلد جدتهم الكبيرة، وهو ما حدث أيضاً مع كثير من الأسماء المعروفة من الليبراليين الجدد المناهضين للصهيونية في المجتمع الإسرائيلي.

أمّا على الجانب الفلسطيني، فإن الصدمة كانت أشد وطأة وأكثر مدعاة إلى النواح واللطم والبكاء المر والخيبة الفظيعة، إذ تبيّن أن عدداً كبيراً، وليس جميع الفلسطينيين من ذوي العيون الزرق، لا حق لهم في المواطنة، حتى إن أحفاد بعض أعضاء في اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية لم يحصلوا على أي نسبة تؤهلهم للبقاء، وكذلك الأمر بالنسبة إلى أحفاد فنانين مشهورين ومثقفين ومفكرين. فمن أصل ١٦ مليون فلسطيني في العالم تقريباً، فشل قرابة ٣ ملايين في الفحص فشلاً ذريعاً، كما تراوح نحو ٤ ملايين بين خط الفشل وخط النجاح، فآثروا الرجوع إلى بلاد هجرتهم في أميركا اللاتينية والشمالية وأوروبا والبلاد العربية.

فرحت أم العبد فرحاً غامراً بنجاحها وعائلتها، فقد تجاوزت النسبة لديهم ٩٠٪ لعبت في ارتفاعها الملوخية والخبيزة والميرمية والزعتر.

لم تجد الأمم المتحدة صعوبة في الموافقة على التسمية الجديدة لتلك البلد التي سمّاها

اليهود إسرائيل، ولم يتوقف الفلسطينيون عن تسميتها فلسطين. فالفلسطينيون، وهم الأغلبية الفائزة في الفحص، ورغبة منهم في إبداء حسن النية في العيش المشترك مع ما بقي من اليهود، وإيماناً منهم بأن القرارات المصيرية ذات العلاقة المعقدة في التاريخ، وخصوصاً أن التاريخ في هذه البلد كان دموياً، لا ينفع أن تُتخذ بحسب التقاليد الديمقراطية التقليدية، أي خضوع الأقلية لقرارات الأغلبية، أحبوا أن يعطوا البلد اسماً جديداً، فلا هو إسرائيل ولا هو فلسطين؛ ولذا قدموا مقترحاً في الاجتماع المخصص لإعلان النتائج، بإطلاق اسم "بلاد الميرمية الجديدة"، لأن الميرمية كانت عاملاً حاسماً في تقرير مصير بلدهم، وأحبوا أن يكرّموها بإطلاقها عليه، وفي الوقت نفسه أن يطمئنوا الأقلية اليهودية التي ستعيش معهم على الأرض المشتركة.

وفي البيان الذي قدمه ممثلهم في الاجتماع، وجّه باسم الشعب الفلسطيني تحية إلى روح شاعرهم القومي على مر الأجيال محمود درويش، واعتذاراً منه، وخصوصاً إلى قصيدته الوطنية بشأن اسم فلسطين، وقال ممثل الفلسطينيين لو أن الشاعر كان بيننا اليوم لأحب الاسم الجديد، فهو أحب بلده وأورث الاسم كما أورث اللغة. ألم يقل الشاعر مرة: والأرض تورث كاللغة!؟ ■